



المستشرقون بين سقطات المنهج وعثرات الاستدلال

حسن أحمد الهادي^[١]

تقتضي القراءة العلميّة المؤيِّدة أو الراضية، الداعمة أو الناقدة، لفكر الآخر وثقافته أو تراثه مراعاة مجموعة من المقدمات والمبادئ البحثية والمنهجية؛ تبدأ بتحديد الغايات والأهداف البحثية بدقّة، وبيان الإشكالية التي يُراد البحث حولها ومعالجتها، والإجابة الصحيحة والوافية على الأسئلة المطروحة، وتحديد منهجها وأدواتها المعرفيّة والمنهجية المناسبة والدقيقة. وعلى رأس ذلك كلّ الدراسة العلمية المتفحّصة والدقيقة للقضيّة المبحوث فيها وفهمها من مصادرها الموثوقة والجامعة بشكل تحكّمه الأمانة والشفافية.

فهذه ثوابت لا مجال لإهمالها أو الانحراف عنها، بغض النظر عن نوعيّة الدراسة البحثية المطلوبة، سواء أكانت دراسةً منسجمةً فكرياً أو أيديولوجياً مع ما يريده الكاتب، أو الجهة التي ينتمي إليها أو يتبع لها؛ أو كانت دراسة نقديةً لفكر

[١]- مدير التحرير.

الآخر وثقافته ومبانيه الإيدولوجية أو الدينية، بمعنى أنها ليست منسجمةً فكرياً أو أيديولوجياً مع الهوية الفكرية للباحث أو المحقق. وبغض النظر عن درجته العلمية، وقبل الوصول إلى مرحلة النتائج البحثية وإصدار الأحكام على الآخر؛ فكراً، وثقافةً، ولغةً، وتاريخاً وأيديولوجياً...

ويبدو بشكل جليّ أنّ جلّ الدراسات الاستشراقية التي تناولت دراسة التراث الإسلامي والعربي، قد حادت وانحرفت عن أغلب هذه الثوابت عن قصد أو غير قصد؛ إذ تفاوتت بين التحقيق العلمي و«التزوير الممنهج»، حيث وقع المستشرقون في سقطات منهجية، أنتجت سقطات معرفية حولت الاستشراق في كثير من جوانبه إلى «حركة تليفيق» بدلاً من البحث العلمي، وإن لم يخل الأمر من منصفين أبرزوا جوانب من التراث. وأدت بطبيعة الحال إلى إنتاج صورة «متخيلة» للإسلام والتراث العربي تخدم سياقات معرفية وسياسية غريبة، وتلبّي الكثير من الأهداف المحددة مسبقاً ضمن الرؤية الاستعمارية والقوالب الغربية الجاهزة.

ومن أبرز سقطات المنهج الاستشراقي:

الانتقائية وسوء الفهم: من خلال التعاطي مع المصادر بنوع من «الانتقائية» التي تخدم أحكاماً مسبقة، مع سوء فهم متعمّد أو غير متعمّد للنصوص الإسلامية.

المنهج الإسقاطي: إسقاط الخلفيات الفلسفية الغربية على التاريخ والتراث الإسلامي، وتصوير الإسلام من الخارج وفقاً لرؤيتهم الخاصة.

الشكّ التخريبي: بالعمل على تفكيك الأرشيف الإسلامي وتصويره كأساطير ومصادر فولكلورية (خاصة في دراسات الحديث وتاريخه).

تغليب التشكيك على التحقيق: من خلال اتخاذ مواقف عدائية من الثوابت، كتشويه السيرة النبوية وإنكار مصادر التشريع، كما فعل «شاخت» و«نولدكه» وغيرهما.

ومن أبرز عثرات الاستدلال عندهم:

تحريف النصوص: من خلال بتر النصوص، أو تحريفها وسوء فهمها، أو توظيف كتب الأدب (غير التوثيقية) لإصدار أحكام تاريخية وفقهية.

نفي الحقيقة المطلقة: بالاستناد إلى منهج «نسبية الحقيقة» لزعة اليقينيات والثوابت الإسلامية.

الإسقاط المعرفي: بالتعامل مع القرآن الكريم والسنة بآليات ومنهجيات نقدية غريبة لا تتناسب مع طبيعة النص، ما يؤدي إلى استنتاجات مغلوطة.

ويتضح هذا الأمر أكثر عندما نسلط الضوء على الذهنية والخلفية الفكرية عند جمهرة المُستشرقين في ميدان البحث العلمي، بلا فرق بين المصنّفين مرجعيات علمية كبيرة منهم وبين غيرهم، حيث تبرز الذاتية والفردانية البحثية عند الكثير منهم. فبدلاً من التجرد عن كل هووى وميل شخصي فيما يريد البحث عنه بالاعتماد على مصادره ومراجعته الموثوقة، وبعد الدراسة والتحليل والتمحيص يحدّد النتيجة والرأي الذي ينبغي اعتماده، تجدهم يضعون في أذهانهم نتيجة أو فكرة معينة يريدون تصيّد الأدلة لإثباتها، وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهتمهم صحتها بمقدار ما يهمهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية، ولهذا يصلون إلى نتائج تصادم الحقيقة والواقع، ويقعون في مفارقات عجيبة، ولولا الهوى والغرض لربأوا بأنفسهم عنها. وفيما يلي بعض النماذج والأمثلة على ذلك:

ومع كثرة النماذج التي أسقطها المستشرقون على التراث الإسلامي والعربي، وأدّت إلى سقطات كثيرة في المنهج الاستشراقي وحياد عن الموضوعية البحثية، إلا أننا سنكتفي بذكر نموذج واحد انسجاماً مع الهدف، علماً أننا قد فصلنا المناقشات والردود في دراسات مستقلة ومفصلة^[١].

[١]- يراجع الموقع الرسمي للمركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، سلسلة القرآن في الدراسات الغربية.

ويتعلّق هذا النموذج ببعض ما ذكره حول القرآن الكريم، حيث ينكر المستشرقون كون القرآن الكريم وحي الله تعالى، ويترتب على إنكارهم هذا إنكار نبوة النبي ﷺ، والقول ببشريّة القرآن وإنه من صنعه ﷺ، وفي أحسن الحالات تراهم جادّين في البحث عن مصادر القرآن بعد البحث عن مصادر معلومات النبي ﷺ، متبعين في هذا البحث منهجاً ظاهرياً قائماً على التماس النظائر والأشباه، حتى إذا ما عثروا على أدنى شبه بين ما في القرآن وما في غيره من الكتب السماوية، بادروا إلى إصدار حكمهم بأنه هو مصدره ومنبعه ومستقاه. وفي هذا الموضوع ألفت العديد من الكتب والبحوث، منها: «المدخل إلى القرآن»، لـ«بلاشير الفرنسي»، ونشر في باريس عام ١٩٤٧م. و«المدخل إلى القرآن»، لـ«د. بل»، ونشر في إدنبره عام ١٩٥٤م. و«المصادر الأصلية للقرآن»، للمنصر البورتستانتي «سانت كلير تسدل». و«مصادر القصص الأصلية في القرآن وقصص الأنبياء»، لـ«سايدر سكاى»، باريس ١٩٣٢م. و«مصادر تاريخ القرآن»، لـ«آرثر جفري». و«تاريخ القرآن»، لـ«بوتيه»، طبع في باريس ١٩٠٤م. و«التطور التاريخي للقرآن»، لـ«إدوارد سيل»، مدراس الهند ١٨٩٨م. و«تاريخ النصّ القرآنيّ»، لـ«إجناس جولدتسهر»، جوتنجن ١٨٦٠م. و«تاريخ القرآن»، لـ«تيودور نولدكه».

وبالقراءة الموجزة لبعض الآراء في هذا السياق، نجد أنّ المستشرق هـ.ج ويلز يقول: «محمد هو الذي صنع القرآن»^[١]، وقال يوليوس فلهاوزن: «القرآن من عند محمد ومن تأليفه»^[٢]. وقال المستشرق الإنكليزيّ «جورج سيل»: «ومما لا شكّ فيه ولا ينبغي أن يختلف فيه اثنان أنّ محمداً هو في الحقيقة مصنّف القرآن وأوّل واضعيه، وإن كان لا يبعد أن غيره أعانه عليه كما اتّهمته العرب، ولكنهم لشدة اختلافهم في تعيين الأشخاص الذين زعموا أنّهم كانوا يعينونه وهتّ حجّتهم، وعجزوا عن

[١]- ويلز، معالم تاريخ الإنسانيّة، ص ٦٢٦.

[٢]- انظر: لوبون، حضارة العرب، ص ١١١.

إثبات دعواهم، ولعلّ ذلك لأنّ محمداً كان أشدّ احتياطاً من أن يترك سبيلاً لكشف الأمر^[١]. وهذا أكبر المستشرقين جولدتسيهر يقول: «فتبشير النبي العربي ليس إلاّ مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينيّة، عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهوديّة والمسيحيّة وغيرها^[٢]. ويقول: لقد أفاد من تاريخ العهد القديم -وكان ذلك في أكثر الأحيان من طريق قصص الأنبياء- ليذكّر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم، ووقفوا في طريقهم^[٣]. أما المستشرق الفريد جيوم فهو الآخر يؤكّد مصدرية اليهوديّة والنصرانيّة للإسلام، ويحاول الاستدلال بآية قرآنيّة استدلالاً خاطئاً على مصداقيّة ما ذهب إليه، حيث قال: «إنّ بلاد العرب كلها كانت مليئة بمعتنقي ديانتني اليهوديّة والمسيحيّة، ولا يعقل أنّ رجلاً ضاق بدين قومه، وأخذ يجدّ في البحث عن هداية إلهيّة، لم يحاول أن يتعرف على دين أولئك الذين يدعون إلى عبادة الله الواحد الحق، وفي القرآن آية مهمّة تتعرّض لهذا الموضوع» تقول: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (يونس: ٩٤)^[٤].

ويإطلالة موجزة وبسيطة على أهم المصادر الموثوقة عند جميع المسلمين تجدهم يجمعون على أنّ القرآن الكريم هو الحجّة القاطعة بيننا وبين الله تعالى، والتي لا شكّ ولا ريب فيها، كلام الله الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، وكان يراجع مع أمين الوحي في كل شهر من شهور رمضان للتأكّد من سلامته مبنى ومعنى^[٥]، وقد بلّغ نبيّ الإسلام القرآن الكريم تبليغاً كاملاً باتّفاق المسلمين، وأمر بحفظه وكتابته وجمعه حال حياته، وأنّ ما بين الدفتين والمتداول بين المسلمين منذ عهد النبي ﷺ لم يزد فيه

[١]- سال، مقالة في الإسلام، ص ١١٦.

[٢]- جولدتسيهر، أجناس، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٢.

[٣]- م. ن، ص ١٥.

[٤]- انظر: العقيدة والشريعة في الإسلام، م. س، ص ٧٠.

[٥]- يُراجع صحيح البخاري، ج ٦، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ.

ولم ينقص منه، و«أنَّ الحقَّ المحقِّق المبرهن بالبراهين القطعيَّة من العقليَّة والنقليَّة أنَّ ما في أيدي الناس من القرآن الكريم هو جميع ما أنزل الله تعالى على رسوله خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ، وما تطرَّق إليه زيادة ونقصان أصلاً»^[١]، ومن المتفق عليه أن هذا القرآن لم ينزل على الرسول ﷺ دفعة واحدة في ليلة القدر، بل إنه تنزَّل عليه منجمًّا في حوالي ثلاث وعشرين سنة، فاقتضت حكمة الله تعالى ألا ينزل القرآن على رسوله ﷺ جملةً واحدة كما نزلت الكتب السماويَّة الأخرى السابقة، وإنما نزل متدرِّجًا ومفرقًا حسب الحوادث والوقائع ومقتضيات التشريع بعد نزوله على قلب النبي ﷺ مرة واحدة، ولهذا الأمر فلسفة خاصَّة ليس هنا محلُّ بحثها. ومن خصائص هذا الكتاب السماوي القرآن الكريم أن ألفاظه ومعانيه كلاهما منزَّل من عند الله تعالى، ووظيفة النبي ﷺ إنما هي تلقيه عن الله تعالى وتبليغه إلى الناس وبيان ما يحتاج منه إلى بيان. وأنه نزل باللغة العربية قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف: ٢). وفيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم، كما جاء عن علي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتاب الله فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل...»^[٢]. وإن القرآن الكريم نقل إلينا بطريق التواتر، كتابته في المصاحف وحفظًا في الصدور، فقد نقله عن النبي ﷺ جموع غفيرة يستحيل تواطؤهم على الكذب أو الوهم أو الخطأ، أبرزهم الإمام علي ﷺ ومجموعة من الصحابة الأخيار، بالإضافة إلى مجموعة من العلماء والفقهاء، وصولاً إلى عصرنا؛ حيث وصل إلينا مكتوبًا في المصاحف.

هذه خلاصة ما يتفق عليه المسلمون في كتبهم ومصادرهم، والتي أغفلها المستشرقون وحادوا عنها، وذهبوا إلى الشاذِّ النادر الذي لا يُبنى عليه رأي علمي معتبر، أو إلى التأويل والقراءات التاريخيَّة وفق مناهج غريبة عن هذا النوع من الدراسات.

[١]- رسالة في فصل الخطاب في عدم تحريف كتاب رب الأرباب من مجموعة رسائل عربية، ص ١.

[٢]- مصنف ابن أبي شيبة، ج ٧، ص ١٦٤.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نفسه نجده ينفي وبشكل قاطع أن يتمكن النبي ﷺ من تغيير ولو حرف واحد من القرآن. ولو كان القرآن من عند النبي، لكان العرب استجابوا لدعوى التحدي، بل لاستطاع العرب أن يأتوا بمثله، وللزم أن يكون النبي قارئاً و كاتباً وعالمًا بتفاصيل المنهج القرآني في العقيدة، والأخلاق، والتشريع، ... ولكان ما يكتبه البشر يحمل الطابع البشري وينعكس بشكل واضح على الأسلوب والمضمون، وهذا ما لا نجده لا في أسلوب القرآن ولا في مضمونه، بالمقارنة بين القرآن والسنة النبوية.

وأما الفكرة التي يروجها المستشرقون حول مصدر جلّ القرآن فهي أن معلوماته ومعارفه قد أخذها محمد ﷺ عن اليهود والنصارى، أي عن الكتاب المقدس؛ لأنّه هو مصدر الديانة اليهودية والنصرانية.

وهنا من حقنا أن نسأل: هل يعتبر مجرد الاتفاق على وقوع قصة ما، كقصة النبي آدم والسيدة حواء، أو قصة النبي موسى أو أي قصة أخرى أو حدث آخر في نصوص العهدين والقرآن، مسوغاً للقول إن مصدر القرآن هو هذه الكتب السماوية؟

وفي الجواب نقول: إنّ القرآن الكريم نفسه يؤكد في آيات عدة أن مصدر الكتب السماوية المقدسة واحد، هو وحي الله تعالى، فالله سبحانه أثبت القرآن الكريم مع سائر الكتب المنزلة من قبله في اللوح المحفوظ وفق علمه الأزلي، فالاختلاف بينها إنما هو اختلاف اللاحق عن السابق في النزول لا الاختلاف في الثبوت والوجود والمضمون، إلا ما كان من صنع البشر وتحريفه، لذا فيجب التطابق والاتفاق بين تلك الكتب في أصول العقيدة والشريعة، والاختلاف إن وُجد بينها ففي الفروع الشرعية العملية ليس إلا. فلماذا يحصر المستشرقون مصدر معلومات الرسول ﷺ في تلك المصادر، دون المصدر الحقيقي لمعلوماته ومعلومات إخوانه من الأنبياء

والمرسلين، وهو الله سبحانه وتعالى، وكما هو مدون في اللوح المحفوظ^[١]؟!
لذلك اعترف بعض المستشرقين المنصفين بأن هذه المعجزة ليست من كلام
البشر، وإنما هي كلام رب العالمين، يقول موريس بوكاي: إن القرآن أفضل كتاب
أخرجته يد الصناعة الأزلية للبشر، ويقول إدوارد أو رسو هارت: أشرق القرآن بصقعه
نورًا يا له من نور! وهو نور حكمة القرآن الذي أنزله الله على صدر نبيه المبعوث
لا محالة لإرشاد البشر، وأبقى لهم دستورًا لن يضلوا به أبدًا، وهو القرآن الجامع
لمصالح دنياهم وأخراهم^[٢].
ولهذا لا يمكن تصنيف هذا الموقف من المستشرقين المغرضين اتجاه مصدر
القرآن الكريم إلا موقف معاند ومتعصب ومكابح، يخرج بصاحبه عن المنهجية
العلمية السليمة، وعن النزاهة البحثية.

[١]- حسين، محمد بهاء الدين، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد السابع، (١٤٢٧هـ)، المصادر الخيالية في دراسات المستشرقين للقرآن الكريم.

[٢]- جيوم، الفريد، الإسلام، ترجمة: محمد مصطفى هدارة وشوقي اليماني، ص ٦١.